وَكَانَ يَفْعَلُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَدَّثُ مَعَهُمْ بِلُطْفٍ دَائِمًا، وَكَانَ يُمْسِكُ بِرَأْسِ باك بِقُوَّةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيُرِيحُ رَأْسَهُ عَلَى رَأْسِ باك، وَيَهُزُّهُ بِقُوَّةٍ، وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ، كَانَ يَنْعَتُ باك بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ لِلْمَرَحِ فَقَطْ. لَمْ يَعْرِفْ باك أَفْضَلَ مِنْ هَذَا الْعِنَاقِ الْخَشِنِ وَصَوْتِ جون ثورنتون. وَمَعَ كُلِّ هِزَّةٍ كَانَ باك يَشْعُرُ أَنَّ قَلْبَهُ سَيَقْفِزُ مِنْ جَسَدِهِ فَرَحًا. وَعِنْدَمَا كَانَ ثورنتون يَتْرُكُهُ، كَانَ باك يَقْفِزُ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَفَمُهُ يَضْحَكُ وَعَيْنَاهُ تَلْمَعَانِ وَيَقِفُ سَاكِنًا. كَانَ جون ثورنتون يُحَدِّقُ إِلَيْهِ وَيَقُولُ: «وَكَأَنَّكَ تَسْتَطِيعُ التَّحَدُّثَ إِلَيَّ أَيُّهَا الْفَتَى!»

كَانَ باك يُظْهِرُ حُبَّهُ بِطَرِيقَةٍ تَكَادُ تُشْبِهُ الْغَضَبَ، كَانَ كَثِيرًا مَا يَأْخُذُ يَدَ ثورنتون فِي فَمِهِ وَيَتَظَاهَرُ بِالْعَضِّ؛ فَكَانَ يَفْهَمُ أَنَّ ثورنتون يَنْعَتُهُ بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ لِلْمَرَحِ فَقَطْ، وَكَانَ ثورنتون يَفْهَمُ أَنَّ هَذِهِ الْعَضَّاتِ الْمُزَيَّفَةَ كَانَتْ مِثْلَ الْعِنَاقِ.

كَانَ باك يَشْعُرُ بِسَعَادَةٍ عَارِمَةٍ عِنْدَمَا يَلْمِسُهُ ثورنتون أَوْ يَتَحَدَّثُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَسْعَ أَبَدًا لِذَلِكَ. أَمَّا سكيت، فَكَانَتْ مُخْتَلِفَةً؛ إِذْ كَانَتْ تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا تَحْتَ يَدِ ثورنتون وَتَظَلُّ تَكِزُّهُ بِرِفْقٍ حَتَّى يُدَاعِبَهَا. وَكَانَ فيج يَتَقَدَّمُ إِلَى ثورنتون وَيُرِيحُ رَأْسَهُ الْكَبِيرَ عَلَى رُكْبَتِهِ. أَمَّا باك، فَكَانَ سَعِيدًا بِحُبِّهِ لِثورنتون عَنْ بُعْدٍ، فَكَانَ يَسْتَلْقِي تَحْتَ قَدَمَيْ ثورنتون، مُنْتَبِهًا وَمُتَحَمِّسًا، يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ وَيَتَأَمَّلُهُ. وَكَانَ مُهْتَمًّا بِكُلِّ تَعْبِيرٍ وَكُلِّ حَرَكَةٍ أَوْ تَغْيِيرٍ، أَوْ كَانَ يَسْتَلْقِي بَعِيدًا، وَيُرَاقِبُ حَرَكَةَ جَسَدِ جون ثورنتون. وَقَدْ أَصْبَحَ الرَّجُلُ وَالْكَلْبُ مُقَرَّبَيْنِ مِنْ بَعْضِهِمَا جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُ عِنْدَمَا كَانَ باك يُحَدِّقُ فِيهِ، كَانَ ثورنتون يَشْعُرُ بِذَلِكَ وَيَلُفُّ رَأْسَهُ وَيُحَدِّقُ فِي الْكَلْبِ بِدُونِ حَدِيثٍ.

وَعَلَى مَدَارِ فَتْرَةٍ طَوِيلَةٍ بَعْدَ إِنْقَاذِهِ، لَمْ يُحِبَّ باك أَنْ يَبْتَعِدَ ثورنتون عَنْ نَاظِرَيْهِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَتْبَعُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. فَكُلُّ أَسْيَادِهِ السَّابِقِينَ قَدْ تَرَكُوهُ، وَكَانَ خَائِفًا أَنْ يَتْرُكَهُ ثورنتون مِثْلَمَا تَرَكَهُ بيرو وفرانسوا وَالسَّائِقُ الِاسْكُتْلَنْدِيُّ، حَتَّى لَيلًا فِي أَحْلَامِهِ كَانَ خَائِفًا، وَعِنْدَمَا كَانَ يَحْدُثُ ذَلِكَ، كَانَ يَهُبُّ مِنْ نَوْمِهِ وَيَتَسَلَّلُ فِي اللَّيْلِ الْبَارِدِ إِلَى الْخَيْمَةِ، وَهُنَاكَ كَانَ يَقِفُ وَيَسْتَمِعُ إِلَى صَوْتِ أَنْفَاسِ سَيِّدِهِ.

رُغْمَ حُبِّهِ الْعَظِيمِ لِجون ثورنتون، كَانَتِ الْحَيَاةُ عَلَى الطَّرِيقِ قَدْ أَكْسَبَتْ باك الشَّرَاسَةَ وَالدَّهَاءَ. فَبِسَبَبِ حُبِّهِ الْكَبِيرِ، لَمْ يَسْتَطِعْ السَّرِقَةَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَرَدَّدْ لَحْظَةً فِي السَّرِقَةِ مِنْ أَيِّ رَجُلٍ آخَرَ فِي أَيِّ مُخَيَّمٍ آخَرَ، وَكَانَ مَكْرُهُ يُمَكِّنُهُ مِنَ الْقِيَامِ بِذَلِكَ دُونَ أَنْ يَكْشِفَ أَحَدٌ أَمْرَهُ.

كَانَ فِي وَجْهِهِ وَجَسِدِهِ نُدُوبٌ مِنْ كُلِّ الْمَعَارِكِ الَّتِي خَاضَهَا مَعَ الْكِلَابِ الْأُخْرَى، وَكَانَ لَا يَزَالُ بِإِمْكَانِهِ الْقِتَالُ بِضَرَاوَتِهِ الْمُعْتَادَةِ. وَكَانَ سكيت وَفيج أَلْطَفَ مِنْ أَنْ يَتَعَارَكَا مَعَهُ، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُمَا كَلْبَا جون ثورنتون، وَلَكِنْ كَانَ باك يُحَاوِلُ الْعِرَاكَ مَعَ أَيِّ كَلْبٍ آخَرَ يَلْقَاهُ.

كَانَ يَبْدُو وَيَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ عُمْرِهِ الْحَقِيقِيِّ، فَكَانَ يَتَحَوَّلُ شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى كَلْبٍ بَرِّيٍّ. وَأَحْيَانًا، بَيْنَمَا يَسْتَلْقِي بِجَانِبِ جون ثورنتون أَمَامَ النَّارِ، كَانَ باك يَشْعُرُ بِالرَّغْبَةِ فِي الرَّكْضِ إِلَى الْغَابَةِ الْمُظْلِمَةِ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ، وَلَا لِمَاذَا عَلَيْهِ الرَّكْضُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَتَذَكَّرُ حُبَّهُ لِجون ثورنتون فَيَعُودُ إِلَى جِوَارِ النَّارِ مُجَدَّدًا.

كَانَ ثورنتون هُوَ الشَّيْءُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَمْنَعُ باك مِنَ الْهُرُوبِ، كُلُّ الْأَشْخَاصِ الْآخَرِينَ لَمْ يَعْنُوا لَهُ شَيْئًا. رُبَّمَا يُرَبِّتُ عَلَيْهِ الْمُسَافِرُونَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَهْتَمُّ، وَكَانَ يُمْكِنُهُ النُّهُوضُ مِنْ جِوَارِ رَجُلٍ شَدِيدِ اللُّطْفِ وَالِابْتِعَادِ عَنْهُ. وَعِنْدَمَا عَادَ شَرِيكَا ثورنتون، هانز وبيت، رَفَضَ باك الِاهْتِمَامَ بِوُجُودِهِمَا حَتَّى عَرَفَ أَنَّهُمَا مُقَرَّبَانِ مِنْ ثورنتون. بَعْدَ ذَلِكَ، كَانَ يَتَصَرَّفُ وَكَأَنَّهُ يُقَدِّمُ لَهُمَا مَعْرُوفًا بِالسَّمَاحِ لَهُمَا بِالتَّعَامُلِ مَعَهُ بِلُطْفٍ. وَعِنْدَمَا وَصَلَ الطَّوْفُ إِلَى داوسون، كَانَا قَدْ فَهِمَا باك وَطُرُقَهُ وَلَمْ يُحَاوِلَا أَنْ يَكُونَا لُطَفَاءَ مَعَهُ كَمَا كَانَا مَعَ سكيت وفيج.

وَلَكِنَّ حُبَّهُ لِثورنتون كَانَ يَكْبُرُ شَيْئًا فَشَيْئًا. كَانَ ثورنتون الرَّجُلَ الْوَحِيدَ الَّذِي يُمْكِنُهُ وَضْعُ حَقِيبَةٍ عَلَى ظَهْرِ باك عِنْدَمَا كَانُوا مُسَافِرِينَ فِي الصَّيْفِ، لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ صَعْبٌ عَلَى باك إِذَا طَلَبَهُ مِنْهُ ثورنتون. وَذَاتَ يَوْمٍ، كَانَ الرِّجَالُ وَالْكِلَابُ يَجْلِسُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ حَافَةِ جُرُفٍ يَنْحَدِرُ إِلَى وَادٍ صَخْرِيٍّ عَلَى بُعْدِ ثَلَاثِمِائَةِ قَدَمٍ. كَانَ جون ثورنتون يَجْلِسُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْحَافَةِ وَكَانَ باك عِنْدَ كَتِفِهِ. ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَى ذِهْنِ ثورنتون فِكْرَةٌ، فَسَأَلَ هانز وَبيت عَنْ رَأْيِهِمَا فِي مَدَى إِخْلَاصِ باك لَهُ.

قَالَ هانز: «لَمْ أَرَ كَلْبًا فِي إِخْلَاصِهِ.» وَأَوْمَأَ بيت مُوَافِقًا.

قَالَ ثورنتون: «دَعُونِي أُرِيكُمْ كَمْ هُوَ مُخْلِصٌ فِي الْحَقِيقَةِ، شَاهِدُوا ذَلِكَ.»

اسْتَدَارَ ثورنتون نَحْوَ باك الَّذِي كَانَ يُبْقِي عَيْنَيْهِ عَلَى سَيِّدِهِ طَوَالَ الْوَقْتِ.

فَأَمَرَهُ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى الْجُرُفِ: «اقْفِزْ يَا باك!»

فِي اللَّحْظَةِ التَّالِيَةِ، كَانَ ثورنتون يَجْذِبُ باك مِنْ عَلَى الْحَافَةِ بِمُسَاعَدَةِ هانز وبيت.

قَالَ بيت بَعْدَ انْتِهَاءِ الْأَمْرِ بِسَلَامٍ: «هَذَا رَائِعٌ.»

هَزَّ ثورنتون رَأْسَهُ: «كَلَّا، إِنَّهُ أَمْرٌ جَيِّدٌ أَنَّهُ يَسْتَمِعُ إِلَيَّ، وَلَكِنَّهُ رَهِيبٌ أَيْضًا. أَحْيَانًا يُشْعِرُنِي بِالْخَوْفِ.»

قَالَ بيت وَهُوَ يُومِئُ بِرَأْسِهِ نَحْوَ باك: «لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ مَكَانَ الرَّجُلِ الَّذِي يُؤْذِيكَ وَباك فِي الْأَرْجَاءِ. إِنَّهُ أَوْفَى وَأَشْرَسُ صَدِيقٍ يُمْكِنُ لِأَيِّ شَخْصٍ الْحُصُولُ عَلَيْهِ.»

تَدَخَّلَ هانز: «بِحَقِّ السَّمَاءِ! أَتَّفِقُ مَعَ بيت تَمَامًا. هَذَا الْكَلْبُ يُسَاوِي جَيْشًا، وَكَمْ أَشْعُرُ بِالشَّفَقَةِ تِجَاهَ مَنْ سَيَكْتَشِفُ ذَلِكَ بِالطَّرِيقَةِ الصَّعْبَةِ.»

وَوَقَعَتِ الْحَادِثَةُ فِي مَدِينَةِ سيركل، قَبْلَ نِهَايَةِ السَّنَةِ، عِنْدَمَا تَحَوَّلَتْ مَخَاوِفُ بيت إِلَى وَاقِعٍ. كَانَ بلاك بورتون رَجُلًا وَضِيعًا وَسَيِّئَ الطِّبَاعِ، وَكَانَ يَبْدَأُ الشِّجَارَ مَعَ وَافِدٍ جَدِيدٍ فِي الْفُنْدُقِ عِنْدَمَا تَدَخَّلَ ثورنتون لِفَصْلِهِمَا. كَانَ باك يَسْتَلْقِي فِي الرُّكْنِ كَعَادَتِهِ وَيَسْنِدُ رَأْسَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ الْأَمَامِيَّتَيْنِ وَهُوَ يُرَاقِبُ كُلَّ حَرَكَةٍ يَقُومُ بِهَا سَيِّدُهُ. وَبِدُونِ أَيِّ إِنْذَارٍ، ضَرَبَ بورتون ثورنتون بِقُوَّةٍ وَطَرَحَهُ أَرْضًا.

سَمِعَ النَّاسُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَاقِبُونَ مَا حَدَثَ صَوْتًا لَمْ يَكُنْ نُبَاحًا وَلَا عُوَاءً، بَلْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَى الزَّئِيرِ، وَشَاهَدُوا باك وَهُوَ يَنْطَلِقُ فِي الْهَوَاءِ وَيَنْقَضُّ عَلَى بورتون. انْدَفَعَ بورتون إِلَى الْخَلْفِ وَباك فَوْقَهُ، وَاضْطُرَّ الْحَاضِرُونَ إِلَى جَذْبِ باك بَعِيدًا، وَبَيْنَمَا كَانُوا يَفْحَصُونَ إِصَابَاتِ بورتون، كَانَ باك يَقْفِزُ وَيُزَمْجِرُ بِغَضَبٍ مُحَاوِلًا الِانْقِضَاضَ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنْ يَمْنَعُهُ نَحْوُ عَشَرَةِ رِجَالٍ.

وَأَخِيرًا تَمَكَّنَ بورتون مِنَ النُّهُوضِ عَلَى قَدَمَيْهِ وَهُوَ يَتَرَنَّحُ وَيَلْهَثُ وَقَالَ: «لَمْ أَرَ كَلْبًا مِثْلَ هَذَا مِنْ قَبْلُ، وَأَتَمَنَّى أَلَّا أَرَى مِثْلَهُ مُجَدَّدًا.» وَمُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ شَاعَ اسْمُ باك فِي كُلِّ مُخَيَّمٍ فِي ألاسكا.

وَفِي وَقْتٍ لَاحِقٍ مِنْ ذَلِكَ الْعَامِ وَفِي فَصْلِ الْخَرِيفِ، أَنْقَذَ باك حَيَاةَ جون ثورنتون بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا. كَانَ الشُّرَكَاءُ الثَّلَاثَةُ يُحَاوِلُونَ تَحْرِيكَ قَارِبٍ صَغِيرٍ عَبْرَ الْمُنْحَدَرَاتِ فِي النَّهْرِ الَّذِي يَمْتَدُّ لِأَرْبَعِينَ مِيلًا. كَانَ هانز وَبيت عَلَى الْيَابِسَةِ يُمْسِكَانِ بِحَبْلٍ مَرْبُوطٍ

بِالْقَارِبِ. وَكَانَ ثورنتون عَلَى الْقَارِبِ، يُحَرِّكُهُ بِحَذَرٍ عَبْرَ النَّهْرِ وَيَصْرُخُ بِتَعْلِيمَاتِهِ لِلرِّجَالِ عَلَى الْيَابِسَةِ. وَكَانَ باك عَلَى الْيَابِسَةِ يُرَاقِبُ الْقَارِبَ بِقَلَقٍ.

وَفِي مِنْطَقَةٍ سَيِّئَةٍ، تَعَقَّدَ الْقَارِبُ وَالْحَبْلُ وَانْقَلَبَ الْقَارِبُ. وَانْجَرَفَ ثورنتون مَعَ التَّيَّارِ نَحْوَ أَسْوَأَ جُزْءٍ مِنَ الْمُنْحَدَرَاتِ.

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، قَفَزَ باك إِلَى الْمَاءِ، وَفِي خِضَمِّ دَوَّامَةِ الْمِيَاهِ السَّرِيعَةِ تَمَكَّنَ مِنَ الْإِمْسَاكِ بِثورنتون. وَعِنْدَمَا شَعَرَ بِهِ وَهُوَ يُمْسِكُ بِذَيْلِهِ، اتَّجَهَ باك نَحْوَ الشَّاطِئِ، وَكَانَ يَسْبَحُ بِكُلِّ قُوَّتِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَحَرَّكُ بِبُطْءٍ وَكَانَتِ الْمُنْحَدَرَاتُ قَوِيَّةً. وَكَانَ ثورنتون يَعْلَمُ أَنَّهُ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ الْوُصُولُ إِلَى الشَّاطِئِ، فَحَاوَلَ التَّشَبُّثَ بِالصُّخُورِ وَأَخْفَقَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ تَمَكَّنَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِوَاحِدَةٍ، فَتَرَكَ باك وَصَاحَ بِصَوْتٍ أَعْلَى مِنْ هَدِيرِ الْمِيَاهِ: «اذْهَبْ يَا باك! اذْهَبْ!»

انْجَرَفَ باك أَكْثَرَ مَعَ التَّيَّارِ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلَى سَيِّدِهِ. وَعِنْدَمَا سَمِعَ سَيِّدَهُ يَأْمُرُهُ، اسْتَدَارَ وَاتَّجَهَ نَحْوَ الْيَابِسَةِ، فَسَبَحَ بِقُوَّةٍ وَسَحَبَهُ هانز وَبيت لِلشَّاطِئِ.

كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ ثورنتون لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِالصَّخْرَةِ طَوِيلًا، فَرَكَضُوا تِجَاهَ أَعْلَى النَّهْرِ بِسُرْعَةٍ، وَرَبَطُوا حَبْلًا إِلَى باك، ثُمَّ قَفَزَ فِي الْمَاءِ. سَبَحَ نَحْوَ ثورنتون وَلَكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي التَّصْوِيبِ وَسَحَبَهُ هانز مَرَّةً أُخْرَى لِلشَّاطِئِ. اسْتَلْقَى باك هُنَاكَ مُنْهَكًا مِنَ السِّبَاحَةِ فِي الْمُنْحَدَرَاتِ، وَلَكِنْ بِمُجَرَّدِ سَمَاعِ صَوْتِ ثورنتون، قَفَزَ وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ وَرَكَضَ بِجَانِبِ الشَّاطِئِ مَرَّةً أُخْرَى.

قَفَزَ فِي الْمِيَاهِ مُجَدَّدًا مَرْبُوطًا بِالْحَبْلِ، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَتَفَادَى ارْتِكَابَ الْخَطَأِ نَفْسِهِ. سَبَحَ حَتَّى سَحَبَهُ التَّيَّارُ نَحْوَ ثورنتون، الَّذِي وَضَعَ ذِرَاعَيْهِ حَوْلَ عُنُقِ باك الْأَشْعَثِ، ثُمَّ سَحَبَ هانز وَبيت الْحَبْلَ. انْدَفَعَ باك وَثورنتون تَحْتَ الْمِيَاهِ وَاصْطَدَمُوا بِالصُّخُورِ حَتَّى وَصَلُوا لِلشَّاطِئِ.

اسْتَعَادَ ثورنتون وَعْيَهُ أَوَّلًا عَلَى إِثْرِ هَزِّ جَسَدِهِ مِنْ قِبَلِ هانز وَبيت، وَكَانَ أَوَّلُ شَيْءٍ فَعَلَهُ هُوَ الْبَحْثُ عَنْ باك. كَانَ فيج وَسكيت يَقِفُونَ بِجَانِبِ باك الَّذِي كَانَ يَسْتَلْقِي عَلَى الْأَرْضِ وَيَتَنَفَّسُ بِصُعُوبَةٍ. وَبِالرُّغْمِ مِنْ إِصَابَتِهِ الشَّدِيدَةِ أَيْضًا، فَحَصَ ثورنتون جَسَدَ باك بِحِرْصٍ بَحْثًا عَنِ الْإِصَابَاتِ وَوَجَدَ أَنَّ باك لَدَيْهِ ثَلَاثَةُ ضُلُوعٍ مَكْسُورَةٍ.

قَالَ: «هَذَا يَحْسِمُ الْأَمْرَ، سَنُخَيِّمُ هُنَا.» وَبِالْفِعْلِ أَقَامُوا الْمُخَيَّمَ حَتَّى شُفِيَتْ ضُلُوعُ باك وَأَصْبَحَ بِإِمْكَانِهِ اسْتِئْنَافُ السَّفَرِ مُجَدَّدًا.

الفصل التاسع

الرِّهَانُ

فِي ذَلِكَ الشِّتَاءِ فِي داوسون قَامَ باك بِأَمْرٍ آخَرَ مُذْهِلٍ أَكْسَبَهُ مَزِيدًا مِنَ الشُّهْرَةِ. بَدَأَ الْأَمْرُ خِلَالَ مُحَادَثَةٍ فِي فُنْدُقِ إلدورادو، حَيْثُ كَانَ بَعْضُ الرِّجَالِ يَتَحَدَّثُونَ إِلَى بَعْضِهِمُ الْبَعْضِ عَنْ كِلَابِهِمُ الْمُفَضَّلَةِ. كَانَ باك الْأَكْثَرَ شُهْرَةً وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ قَالُوا إِنَّهُ لَيْسَ رَائِعًا لِهَذِهِ الدَّرَجَةِ، فَتَجَادَلَ ثورنتون مَعَهُمْ. فَقَالَ أَحَدُهُمْ إِنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ مِزْلَجَةٍ بِحُمُولَةِ خَمْسِمِائَةِ رَطْلٍ، وَقَالَ آخَرُ إِنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ حُمُولَةِ سِتِّمِائَةِ رَطْلٍ، وَقَالَ رَجُلٌ ثَالِثٌ إِنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ سَبْعِمِائَةِ رَطْلٍ.

قَالَ جون ثورنتون: «هَذَا لَا شَيْءَ. باك يُمْكِنُهُ جَرُّ مِزْلَجَةٍ بِحُمُولَةِ أَلْفِ رَطْلٍ.»

فَسَأَلَهُ ماثيوسن، وَالَّذِي كَانَ يَزْعُمُ أَنَّ كَلْبَهُ يُمْكِنُهُ جَرُّ حُمُولَةِ سَبْعِمِائَةِ رَطْلٍ: «وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَلِيدِ وَيَسِيرُ بِهَا مَسَافَةَ مِائَةِ يَارْدَةٍ؟»

فَأَجَابَهُ جون ثورنتون بِهُدُوءٍ: «وَيُخْرِجُهَا مِنَ الْجَلِيدِ وَيَسِيرُ بِهَا مَسَافَةَ مِائَةِ يَارْدَةٍ.»

قَالَ ماثيوسن بِبُطْءٍ وَتَأَنٍّ حَتَّى يَسْمَعَهُ الْجَمِيعُ: «حَسَنًا، أُرَاهِنُ بِأَلْفِ دُولَارٍ أَنَّهُ لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ ذَلِكَ. وَهَا هُوَ الْمَبْلَغُ.» وَقَامَ بِإِلْقَاءِ كِيسٍ مِنْ غُبَارِ الذَّهَبِ بِحَجْمِ النَّقَانِقِ عَلَى الْبَارِ.

لَمْ يَتَحَدَّثْ أَحَدٌ، وَشَعَرَ ثورنتون بِنَفْسِهِ وَهُوَ يَحْمَرُّ خَجَلًا، لَقَدْ تَهَوَّرَ فِي الْحَدِيثِ، فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا إِذَا كَانَ بِإِمْكَانِ باك جَرُّ كُلِّ هَذِهِ الْحُمُولَةِ أَمْ لَا. أَلْفُ رَطْلٍ! جَعَلَهُ هَذَا الْحَجْمُ يَشْعُرُ بِالْغَثَيَانِ. لَقَدْ كَانَ وَاثِقًا فِي قُوَّةِ باك، وَفَكَّرَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ أَنَّ باك رُبَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ جَرِّ حُمُولَةٍ كَهَذِهِ. وَلَكِنِ الْآنَ كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ. فَالْبَلْدَةُ بِأَكْمَلِهَا تَنْتَظِرُ وَتُرَاقِبُ. وَالْأَسْوَأُ مِنْ ذَلِكَ، أَنَّ ثورنتون لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ أَلْفَ دُولَارٍ وَلَا حَتَّى هانز أَوْ بيت.

أَكْمَلَ ماثيوسن بِخُبْثٍ: «لَدَيَّ فِي الْخَارِجِ مِزْلَجَةٌ تَحْمِلُ عِشْرِينَ كِيسًا مِنَ الدَّقِيقِ، يَزِنُ كُلُّ كِيسٍ خَمْسِينَ رَطْلًا. هَا هِيَ حُمُولَةُ الْأَلْفِ رَطْلٍ. وَهَكَذَا يُمْكِنُنَا الذَّهَابُ الْآنَ.»

لَمْ يُجِبْ ثورنتون، فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَاذَا يَقُولُ، وَأَدَارَ عَيْنَيْهِ فِي الْوُجُوهِ مِنْ وَجْهٍ لِوَجْهٍ وَرَأَى صَدِيقًا قَدِيمًا يُدْعَى جيم أوبراين.

سَأَلَهُ ثورنتون هَامِسًا: «هَلْ يُمْكِنُكَ إِقْرَاضِي أَلْفَ دُولَارٍ؟»

أَجَابَهُ أوبراين: «بِالطَّبْعِ. أَنَا أَضَعُ ثِقَتِي بِكَ يَا جون، وَأَثِقُ أَنَّ هَذَا الْوَحْشَ يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِالْأَمْرِ.» وَأَلْقَى بِكِيسٍ مِنَ النُّقُودِ إِلَى جَانِبِ كِيسِ ماثيوسن.

قَالَ ثورنتون: «لَا تَقْلَقْ، هَذَا الْكَلْبُ يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِالْمُعْجِزَاتِ. فَقَدْ أَنْقَذَ حَيَاتِي ذَاتَ مَرَّةٍ.»

«وَسَيَفْعَلُهَا مُجَدَّدًا.» هَكَذَا قَالَ بيت وَهُوَ يَتَذَكَّرُ الْمَرَّةَ الَّتِي كَادَ باك أَنْ يَقْفِزَ مِنْ عَلَى الْجُرُفِ بِنَاءً عَلَى أَمْرٍ مِنْ ثورنتون. وَأَضَافَ: «لَمْ أَرَ قَطُّ كَلْبًا مُخْلِصًا وَمُتَفَانِيًا لِسَيِّدِهِ بِهَذَا الشَّكْلِ. فَإِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ باك مِنَ الْقِيَامِ بِالْأَمْرِ، فَلَا أَحَدَ يَسْتَطِيعُ.»

أَوْمَأَ أوبراين بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا وَقَالَ وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى باك: «لَقَدْ سَمِعْتُ عَنْهُ وَعَمَّا يُمْكِنُهُ الْقِيَامُ بِهِ. أَعْلَمُ أَنَّهَا مُخَاطَرَةٌ وَلَكِنِّي مُسْتَعِدٌّ لِتَقَبُّلِهَا. إِنَّ ماثيوسن كَثِيرُ الْحَدِيثِ، وَلَكِنَّ باك هُوَ كَلْبُ الْمَهَامِّ الصَّعْبَةِ.»

خَرَجَ الْجَمِيعُ مِنْ فُنْدُقِ إلدورادو وَوَقَفُوا فِي الشَّارِعِ فِي الْخَارِجِ، وَقَفَ عِدَّةُ مِئَاتٍ مِنَ الرِّجَالِ مُرْتَدِينَ الْفَرْوَ وَالْقُفَّازَاتِ حَوْلَ مِزْلَجَةِ ماثيوسن. كَانَتْ مُحَمَّلَةً بِأَلْفِ رَطْلٍ مِنَ الدَّقِيقِ، وَوَاقِفَةً فِي مَكَانِهَا لِعِدَّةِ سَاعَاتٍ. وَفِي ذَلِكَ الطَّقْسِ الْبَارِدِ، تَجَمَّدَتِ الْمِزْلَجَةُ فِي الْجَلِيدِ الصُّلْبِ، وَكَانَ مُعْظَمُ الرِّجَالِ يُرَاهِنُونَ أَنَّ باك لَنْ يَتَمَكَّنَ مِنْ زَحْزَحَةِ الْمِزْلَجَةِ مِنْ مَكَانِهَا.

حَتَّى جون ثورنتون شَعَرَ بِالسُّوءِ لِتَسَرُّعِهِ بِقَبُولِ الرِّهَانِ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَةِ الْمِزْلَجَةِ مَعَ فَرِيقِهَا الْأَصْلِيِّ الْمُكَوَّنِ مِنْ عَشَرَةِ كِلَابٍ يَسْتَلْقُونَ عَلَى الْجَلِيدِ أَمَامَهَا. بَدَتْ مَهَمَّةُ باك مُسْتَحِيلَةً، وَلَكِنَّ ماثيوسن كَانَ سَعِيدًا.

فَصَاحَ قَائِلًا: «ثَلَاثَةٌ إِلَى وَاحِدٍ! سَأُرَاهِنُكَ بِأَلْفِ دُولَارٍ أُخْرَى عَلَى هَذِهِ النِّسْبَةِ، مَا رَأْيُكَ؟»

بَدَا ثورنتون قَلِقًا، وَلَكِنَّ الرِّهَانَ أَثَارَ رُوحَ الْقِتَالِ بِدَاخِلِه. فَنَادَى هانز وَبيت، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَى الرِّجَالِ الثَّلَاثَةِ مُجْتَمِعِينَ سِوَى مِائَتَيْ دُولَارٍ فَقَطْ. كَانَ ذَلِكَ كُلَّ مَا يَمْلِكُونَهُ، وَقَدْ رَاهَنُوا بِالْمَبْلَغِ كُلِّهِ.

تَمَّ تَحْرِيرُ الْكِلَابِ الْعَشَرَةِ مِنَ الْمِزْلَجَةِ، وَتَمَّ رَبْطُ باك بِسَرْجِهِ الْخَاصِّ بِالْمِزْلَجَةِ. كَانَ قَدْ شَعَرَ بِالْحَمَاسَةِ الْمُتَدَفِّقَةِ حَوْلَهُ، وَعَلِمَ بِطَرِيقَةٍ مَا أَنَّ عَلَيْهِ الْقِيَامَ بِشَيْءٍ رَائِعٍ مِنْ أَجْلِ جون ثورنتون. تَحَدَّثَ الْجَمْعُ عَنْ مَنْظَرِ باك الرَّائِع. فَقَدْ كَانَ فِي هَيْئَةٍ مُمْتَازَةٍ، يَزِنُ مِائَةً وَخَمْسِينَ رَطْلًا مِنَ الْقُوَّةِ الْخَالِصَةِ وَفَرْوَتُهُ تَلْمَعُ كَالْحَرِيرِ، تَحَسَّسَ الرِّجَالُ عَضَلَاتِهِ وَقَالُوا إِنَّهَا صُلْبَةٌ كَالْحَدِيدِ، وَانْخَفَضَتْ الِاحْتِمَالَاتُ إِلَى اثْنَيْنِ إِلَى وَاحِدٍ.

هَتَفَ شَخْصٌ مِنَ الْجَمْعِ: «بِحَقِّ السَّمَاءِ يَا سَيِّدِي! سَأَدْفَعُ لَكَ ثَمانِمائَةِ دُولَارٍ فِي مُقَابِلِهِ، قَبْلَ اخْتِبَارِ الْقُوَّةِ. ثَمَانِمائَةِ دُولَارٍ مُقَابِلَهُ الْآنَ.»

هَزَّ ثورنتون رَأْسَهُ وَوَقَفَ بِجَانِبِ باك.

قَالَ ماثيوسن: «يَجِبُ أَنْ تَبْقَى بَعِيدًا عَنْهُ وَهُوَ يَشُدُّ. أَعْطِهِ مَسَاحَةً جَيِّدَةً.»

خَيَّمَ الصَّمْتُ عَلَى الْجُمُوعِ، وَقَدْ وَافَقُوا جَمِيعًا عَلَى أَنَّ باك حَيَوَانٌ رَائِعٌ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ حُمُولَةَ أَلْفِ رَطْلٍ أَضْخَمُ مِنْ أَنْ يَجُرَّهَا كَلْبٌ وَاحِدٌ، وَلَمْ يُرَاهِنْ أَحَدٌ آخَرُ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى الْقِيَامِ بِالْمَهَمَّةِ.

جَثَا ثورنتون عَلَى رُكْبَتَيْهِ بِجَانِبِ باك، وَأَخَذَ رَأْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَرَاحَ خَدَّهُ عَلَى خَدِّ باك. وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهُزَّ رَأْسَهُ بِمَرَحٍ أَوْ يَدْعُهُ بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ كَمَا كَانَ يَتَمَنَّى باك، بَلْ هَمَسَ فِي أُذُنِهِ.

هَمَسَ قَائِلًا: «بِقَدْرِ مَا تُحِبُّنِي يَا باك. بِقَدْرِ مَا تُحِبُّنِي.» أَطْلَقَ باك عُوَاءً بِحَمَاسَةٍ لَمْ يَسْتَطِعْ كَبْتَهَا.

كَانَ الْجَمْعُ يُرَاقِبُ مَا يَحْدُثُ بِفُضُولٍ، بَدَا الْأَمْرُ وَكَأَنَّ شَيْئًا سِحْرِيًّا يَحْدُثُ. فَعِنْدَمَا وَقَفَ ثورنتون، أَخَذَ باك يَدَهُ بَيْنَ فَكَّيْهِ وَهُوَ يَضْغَطُ بِأَسْنَانِهِ عَلَيْهَا وَيَتْرُكُهَا بِبُطْءٍ؛ كَانَتْ هَذِهِ هِيَ إِجَابَتُهُ، وَهُوَ يُظْهِرُ مَدَى حُبِّهِ لِهَذَا الرَّجُلِ. تَرَاجَعَ ثورنتون لِلْخَلْفِ وَقَالَ: «الْآنَ يَا باك.»

شَدَّ باك السَّرْجَ وَتَرَكَهُ يَرْتَخِي عِدَّةَ بُوصَاتٍ، كَانَتْ هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَعَلَّمَهَا.

صَرَخ ثورنتون: «إِلَى الْيَمِينِ.»

مَالَ باك إِلَى الْيَمِينِ وَهُوَ يَشُدُّ السَّرْجَ بِحَرَكَةٍ مُفَاجِئَةٍ، اهْتَزَّتْ الْمِزْلَجَةُ وَكَانَ هُنَاكَ صَوْتُ طَقْطَقَةِ الْجَلِيدِ.

صَرَخَ ثورنتون بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ: «إِلَى الْيَسَارِ.»

قَفَزَ باك مُجَدَّدًا وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ نَاحِيَةَ الْيَسَارِ، تَحَوَّلَ صَوْتُ الطَّقْطَقَةِ إِلَى صَوْتِ تَهَشُّمٍ، وَتَحَرَّكَتِ الْمِزْلَجَةُ لِبِضْعَةِ بُوصَاتٍ إِلَى الْجَانِبِ. كَانَتِ الْمِزْلَجَةُ قَدْ تَحَرَّرَتْ مِنَ الْجَلِيدِ. كَانَ الرِّجَالُ يَحْبِسُونَ أَنْفَاسَهُمْ دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا ذَلِكَ.

– «وَالْآنَ، انْطَلِقْ!»

انْطَلَقَ أَمْرُ ثورنتون كَطَلْقَةِ الرَّصَاصِ، فَدَفَعَ باك بِنَفْسِهِ إِلَى الْأَمَامِ وَهُوَ يَشُدُّ أَحْزِمَةَ السَّرْجِ، اهْتَزَّ جَسَدُهُ كُلُّهُ مِنَ الْمَجْهُودِ وَكَانَتْ عَضَلَاتُهُ تَشْتَدُّ تَحْتَ فَرْوِهِ الْحَرِيرِيِّ، وَكَانَ صَدْرُهُ الْقَوِيُّ بِالْقُرْبِ مِنَ الْأَرْضِ، وَرَأْسُهُ لِلْأَسْفَلِ وَمَمْدُودًا إِلَى الْأَمَامِ، بَيْنَمَا كَانَتْ أَقْدَامُهُ تَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ وَتَخْدِشُ مَخَالِبُهُ الْجَلِيدَ الصُّلْبَ. اهْتَزَّتِ الْمِزْلَجَةُ وَتَحَرَّكَتْ لِلْأَمَامِ خُطْوَةً صَغِيرَةً، وَتَعَثَّرَتْ أَحَدُ أَقْدَامِ باك فَأَطْلَقَ أَحَدُ الرِّجَالِ الْوَاقِفِينَ صَرْخَةَ تَأَوُّهٍ. ثُمَّ مَالَتِ الْمِزْلَجَةُ إِلَى الْأَمَامِ فِي سِلْسِلَةٍ مِنَ الِاهْتِزَازَاتِ وَلَمْ تَتَوَقَّفْ مُجَدَّدًا. نِصْفُ بُوصَةٍ، بُوصَةٌ، بُوصَتَانِ. تَوَقَّفَتْ الِاهْتِزَازَاتُ وَسُرْعَةُ الْمِزْلَجَةِ تَزْدَادُ حَتَّى أَصْبَحَتْ تَتَحَرَّكُ بِثَبَاتٍ.

لَهَثَ الرِّجَالُ مِنْ فَرْطِ دَهْشَتِهِمْ، وَبَدَءُوا يَلْتَقِطُونَ أَنْفَاسَهُمْ مُجَدَّدًا. كَانَ ثورنتون يَرْكُضُ خَلْفَ الْمِزْلَجَةِ وَهُوَ يُشَجِّعُ باك. كَانَتْ مَسَافَةُ الرِّهَانِ مُحَدَّدَةً بِكَوْمَةٍ مِنَ الْأَخْشَابِ، وَبَدَأَتْ صَيْحَاتُ التَّشْجِيعِ تَتَعَالَى وَتَحَوَّلَتْ إِلَى صِيَاحٍ عِنْدَمَا اجْتَازَ باك كَوْمَةَ الْخَشَبِ وَتَوَقَّفَ عِنْدَ أَمْرِ ثورنتون. أَلْقَى الرِّجَالُ بِقُبَّعَاتِهِمْ وَقُفَّازَاتِهِمْ فِي الْهَوَاءِ، حَتَّى ماثيوسن، وَتَصَافَحُوا وَهُمْ يَضْحَكُونَ.

وَلَكِنَّ ثورنتون كَانَ جَاثِيًا عَلَى رُكْبَتَيْهِ بِجَانِبِ باك، وَكَانَتْ رَأْسَاهُمَا تَتَلَامَسَانِ، وَكَانَ ثورنتون يَهُزُّهُ إِلَى الْأَمَامِ وَالْخَلْفِ، وَسَمِعَهُ الرِّجَالُ الَّذِينَ أَسْرَعُوا إِلَيْهِمَا وَهُوَ يَنْعَتُ باك بِبَعْضِ الْأَلْقَابِ السَّيِّئَةِ فِي صَوْتٍ حَنُونٍ مُحِبٍّ.

غَمْغَمَ الرَّجُلُ الَّذِي عَرَضَ شِرَاءَ باك: «بِحَقِّ السَّمَاءِ يَا سَيِّدِي! يَا سَيِّدِي! سَأُعْطِيكَ أَلْفَ دُولَارٍ فِي مُقَابِلِهِ يَا سَيِّدِي. أَلْفَ دُولَارٍ. بَلْ أَلْفًا وَمِائَتَيْنِ.»

وَقَفَ ثورنتون فِي صَمْتٍ، وَكَانَتْ عَيْنَاهُ مُغْرَوْرِقَتَانِ بِالدُّمُوعِ الَّتِي تَنْهَمِرُ عَلَى وَجْهِهِ.

فَصَاحَ الرَّجُلُ: «أَلْفٌ وَأَرْبَعُمِائَةٍ إِذَنْ.»

قَالَ ثورنتون عِنْدَمَا شَعَرَ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى الْحَدِيثِ: «كَلَّا يَا سَيِّدِي. وَلَا حَتَّى فِي مُقَابِلِ كُلِّ الذَّهَبِ فِي ألاسكا.»

جَذَبَ باك يَدَ ثورنتون مَرَّةً أُخْرَى بَيْنَ أَسْنَانِهِ، بَيْنَمَا كَانَ ثورنتون يَهُزُّ رَأْسَهُ لِلْأَمَامِ وَالْخَلْفِ. ابْتَعَدَ الْجَمْعُ عَنْهُمَا وَلَمْ يُقَاطِعْهُمَا أَحَدٌ مَرَّةً أُخْرَى.

بِفَوْزِ باك بِالرِّهَانِ، جُمِعَ أَلْفٌ وَسِتُّمِائَةِ دُولَارٍ مِنْ أَجْلِ جون ثورنتون فِي خَمْسِ دَقَائِقَ. هَذَا الْمَالُ سَاعَدَ ثورنتون عَلَى سَدَادِ دُيُونِهِ وَالسَّفَرِ مَعَ شُرَكَائِهِ إِلَى الشَّرْقِ سَعْيًا وَرَاءَ مَنْجَمٍ مَشْهُورٍ مَفْقُودٍ. وَقَدْ بَحَثَ عَنْهُ الْكَثِيرُ مِنَ الرِّجَالِ، وَكَانَتْ هُنَاكَ الْعَدِيدُ مِنَ الْقِصَصِ حَوْلَهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ مَنِ اكْتَشَفَهُ أَوَّلًا.

كَانَ هُنَاكَ حَدِيثٌ عَنْ كُوخٍ قَدِيمٍ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَنْجَمِ. كَانَت هُنَاكَ قِطَعٌ مِنَ الذَّهَبِ يَقُولُ أُنَاسٌ إِنَّهَا استُخْرِجَتْ مِنْ هُنَاكَ، وَإِنَّهَا تَخْتَلِفُ عَنِ الذَّهَبِ الْمَوْجُودِ فِي أَيِّ مَكَانٍ آخَرَ فِي الشَّمَالِ.

اصْطَحَبَ جون ثورنتون وَبيت وَهانز باك مَعَهُمْ بِالْإِضَافَةِ إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ كَلْبًا آخَرَ وَاتَّجَهُوا شَرْقًا عَلَى طَرِيقٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِلْبَحْثِ عَنِ الْمَنْجَمِ الْمَفْقُودِ. سَافَرُوا مَسَافَةَ سَبْعِينَ مِيلًا بِاتِّجَاهِ مَنْبَعِ نَهْرِ يوكون، وَاتَّجَهُوا لِلْيَسَارِ إِلَى نَهْرِ ستيوارت، وَمَرُّوا بِنَهْرَيْ مايو وَماكويستن، وَاسْتَمَرُّوا فِي مَسِيرَتِهِمْ حَتَّى أَصْبَحَ نَهْرُ ستيوارت مُجَرَّدَ جَدْوَلٍ صَغِيرٍ فِي الْجِبَالِ الشَّاهِقَةِ.

لَمْ يَكُنْ جون ثورنتون يَحْتَاجُ لِلْكَثِيرِ مِنْ أَجْلِ الْعَيْشِ، وَلَم يَكُنْ يَخَافُ مِنَ الْبَرِّيَّةِ. فَبِحَفْنَةٍ مِنَ الْمِلْحِ وَبُنْدُقِيَّةٍ، يُمْكِنُهُ الْغَوْصُ فِي أَعْمَاقِ الْبَرِّيَّةِ وَالْعَيْشُ لِأَيِّ مُدَّةٍ يُرِيدُهَا. لَمْ يَكُنْ عَلَى عَجَلَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، وَكَانَ يَصْطَادُ كَالسُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ وَهُوَ مُسَافِرٌ. وَإِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِن اصْطِيَادِ عَشَائِهِ، عِنْدَئِذٍ كَانَ يَسْتَمِرُّ فِي السَّفَرِ مِثْلَ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ، مُتَأَكِّدًا أَنَّهُ عَاجِلًا أَوْ آجِلًا سَيَصْطَادُ شَيْئًا.

وَمِنْ ثَمَّ، خِلَالَ تِلْكَ الرِّحْلَةِ نَحْوَ الشَّرْقِ، تَنَاوَلَ الرِّجَالُ وَالْكِلَابُ اللَّحْمَ بِانْتِظَامٍ. وَكَانَتِ الْمِزْلَجَةُ مُحَمَّلَةً بِالذَّخِيرَةِ وَالْأَدَوَاتِ، وَكَانُوا يُسَافِرُونَ فِي تَمَهُّلٍ.

أَحَبَّ باك تِلْكَ الرِّحْلَةَ مِنَ الصَّيْدِ وَصَيْدِ الْأَسْمَاكِ وَالتَّجَوُّلِ فِي الْأَمَاكِنِ الْغَرِيبَةِ. وَعَلَى مَدارِ أَسَابِيعَ، كَانُوا يُخَيِّمُونَ هُنَا وَهُنَاكَ، تَتَكَاسَلُ الْكِلَابُ وَيُحْرِقُ الرِّجَالُ الثُّقُوبَ فِي الْجَلِيدِ وَالْحَصَى، وَيَفْصِلُونَ الذَّهَبَ مِنَ الْحَصَى بِحَرَارَةِ النَّارِ، يَجُوعُونَ أَحْيَانًا، وَيَأْكُلُونَ حَتَّى الشَّبَعِ فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى. وَجَاءَ فَصْلُ الصَّيْفِ، وَكَانَ الْكِلَابُ وَالرِّجَالُ يَحْمِلُونَ الْحَقَائِبَ عَلَى ظُهُورِهِمْ، وَيَرْكَبُونَ الْأَطْوَافَ عَبْرَ بُحَيْرَاتِ الْجِبَالِ، وَيُسَافِرُونَ عَبْرَ الْأَنْهَارِ فِي مَرَاكِبَ صَغِيرَةٍ يَصْنَعُونَهَا مِنَ الْأَشْجَارِ فِي الْغَابَةِ.

مَرَّتْ شُهُورٌ عَدِيدَةٌ، وَهُمْ يَسْلُكُونَ طُرُقًا كَثِيرَةً عَبْرَ أَرَاضٍ مَهْجُورَةٍ، وَكَانُوا يَتَجَوَّلُونَ فِي الطُّرُقِ الْقَدِيمَةِ فِي الشِّتَاءِ، وَأَخِيرًا فِي الرَّبِيعِ وَجَدُوا شَيْئًا. لَمْ يَكُنِ الْمَنْجَمُ الْمَفْقُودُ وَلَا الكُوخُ الْمَفْقُودُ وَإِنَّمَا نَهْرٌ ضَحْلٌ فِي وَادٍ عَمِيقٍ، وَكَانَتْ صُخُورُ النَّهْرِ مَلِيئَةً بِالذَّهَبِ. تَوَقَّفَ الْفَرِيقُ عَنِ الْبَحْثِ وَاسْتَقَرَّ هُنَاكَ. كُلَّ يَوْمٍ كَانُوا يَجِدُونَ مَا يُسَاوِي آلَافَ الدُّولَارَاتِ مِنْ قِطَعِ الذَّهَبِ وَغُبَارِهِ. وَضَعُوا الذَّهَبَ فِي أَكْيَاسٍ، خَمْسُونَ رَطْلًا فِي كُلِّ كِيسٍ، وَوَضَعُوهَا فِي كَوْمَةٍ مِثْلِ الْخَشَبِ خَارِجَ الكُوخِ الصَّغِيرِ الذي بَنَوْه.

لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَيْءٌ تَفْعَلُهُ الْكِلَابُ سِوَى سَحْبِ الْغَنَائِمِ الَّتِي يَصْطَادُهَا ثورنتون. لِذَا قَضَى باك سَاعَاتٍ كَثِيرَةً حَالِمًا بِجَانِبِ النَّارِ؛ كَانَ يَحْلُمُ أَنَّهُ يَسْمَعُ شَيْئًا يُنَادِيهِ مِنَ الْغَابَةِ، وَكَانَ يَشْعُرُ بِالسَّعَادَةِ، وَكَانَ يُرِيدُ فِعْلَ شَيْءٍ ذِي أَهَمِّيَّةٍ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَاهِيَّتَهُ. فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ كَانَ يُطَارِدُ هَذَا الصَّوْتَ عَبْرَ الْغَابَةِ بَحْثًا عَمَّا إِذَا كَانَ صَوْتَ حَيَوَانٍ. كَانَ يَدْفَعُ بِأَنْفِهِ وَيُشَمْشِمُ فِي الْعُشْبِ الْبَارِدِ أَوِ التُّرْبَةِ السَّوْدَاءِ حَيْثُ يَنْبُتُ الْعُشْبُ الطَّوِيلُ، أَوْ يَرْبِضُ لِسَاعَاتٍ مُخْتَبِئًا خَلْفَ جُذُوعِ الْأَشْجَارِ الْمُتَسَاقِطَةِ، يُرَاقِبُ وَيَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ يَتَحَرَّكُ أَوْ يُصْدِرُ صَوْتًا بِالْقُرْبِ مِنْهُ. لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ لِمَاذَا يَفْعَلُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ عَلَيْهِ الْقِيَامَ بِهَا وَلَمْ يَسْأَلْ نَفْسَهُ لِمَاذَا.

أَحْيَانًا يَكُونُ مُسْتَلْقِيًا فِي الْمُخَيَّمِ، نَائِمًا فِي الْجَوِّ الْحَارِّ، وَفَجْأَةً يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَكَأَنَّهُ سَمِعَ شَيْئًا، ثُمَّ يَهُبُّ وَاقِفًا عَلَى أَقْدَامِهِ وَيَنْدَفِعُ مُبْتَعِدًا. وَكَانَ يَرْكُضُ لِسَاعَاتٍ عَبْرَ الْغَابَةِ وَالْمِسَاحَاتِ الْمَفْتُوحَةِ، وَيَسْتَلْقِي فَوْقَ الشُّجَيْرَاتِ لِأَيَّامٍ حَيْثُ يُرَاقِبُ الطُّيُورَ، كَمَا كَانَ يُحِبُّ الرَّكْضَ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ فِي الصَّيْفِ. لَقَدْ كَانَ باك يَبْحَثُ دَائِمًا عَنْ ذَلِكَ الشَّيْءِ الْغَامِضِ الَّذِي يُنَادِيهِ.

الفصل العاشر

نِدَاءُ الْبَرِّيَّةِ

ذَاتَ لَيْلَةٍ اسْتَيْقَظَ باك فَجْأَةً وَأَخَذَ يَتَشَمَّمُ الْهَوَاءَ وَانْتَصَبَ شَعْرُ جَسَدِهِ؛ فَقَدْ جَاءَهُ ذَلِكَ النِّدَاءُ مِنَ الْغَابَةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مُخْتَلِفًا هَذِهِ الْمَرَّةَ. كَانَ عُوَاءً طَوِيلًا، فَانْدَفَعَ باك عَبْرَ الْمُخَيَّمِ حَيْثُ كَانَ الْجَمِيعُ نَائِمِينَ، وَرَكَضَ عَبْرَ الْغَابَةِ. وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَ مِنَ الصَّوْتِ، أَخَذَ يَتَقَدَّمُ بِبُطْءٍ وَحِرْصٍ حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَكَانٍ مَفْتُوحٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ. وَهُنَاكَ رَأَى باك ذِئْبًا طَوِيلًا مَمْشُوقَ الْقَوَامِ مِنْ ذِئَابِ الْغَابَاتِ يَجْلِسُ عَلَى سَاقَيْهِ الْخَلْفِيَّتَيْنِ وَيُصَوِّبُ أَنْفَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ.

لَمْ يُصْدِرْ باك أَيَّ صَوْتٍ، وَلَكِنَّ الذِّئْبَ تَوَقَّفَ عَنِ الْعُوَاءِ وَنَظَرَ حَوْلَهُ، فَخَرَجَ باك إِلَى الْمِنْطَقَةِ الْمَفْتُوحَةِ، وَجَسَدُهُ مُنْتَصِبٌ وَمُسْتَعِدٌّ لِلِانْقِضَاضِ وَذَيْلُهُ مُنْتَصِبٌ وَصُلْبٌ. أَرَادَ باك أَنْ يُظْهِرَ أَنَّهُ وَدُودٌ وَلَكِنَّ الذِّئْبَ رَكَضَ بَعِيدًا. رَكَضَ باك خَلْفَهُ وَلَحِقَ بِهِ بِسُهُولَةٍ، فَاسْتَدَارَ الذِّئْبُ وَاسْتَعَدَّ لِلْقِتَالِ.

لَمْ يُهَاجِمْ باك، وَلَكِنْ بَدَلًا مِنْ ذَلِكَ أَخَذَ يَدُورُ حَوْلَ الذِّئْبِ مُحَاوِلًا أَنْ يَبْدُوَ وَدُودًا، وَلَكِنَّ الذِّئْبَ كَانَ مُرْتَابًا وَخَائِفًا؛ فَقَدْ كَانَ باك أَكْبَرَ حَجْمًا مِنَ الذِّئْبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ عَلَى الْأَقَلِّ، فَكَانَتْ رَأْسُ الذِّئْبِ بِالْكَادِ تَصِلُ إِلَى كَتِفِ باك. وَمَرَّةً أُخْرَى، عِنْدَمَا وَجَدَ الذِّئْبُ فُرْصَةً رَكَضَ بَعِيدًا فَطَارَدَهُ باك الَّذِي كَانَ يَلْحَقُ بِهِ دَائِمًا، ثُمَّ حَاوَلَ الذِّئْبُ الْهُرُوبَ مُجَدَّدًا حَتَّى شَعَرَ بِالتَّعَبِ.

فِي النِّهَايَةِ حَصَلَ باك عَلَى مَا أَرَادَهُ، فَعِنْدَمَا وَجَدَ الذِّئْبُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي خَطَرٍ، أَخِيرًا أَخَذَ يَتَشَمَّمُ أَنْفَ باك. أَصْبَحَ الِاثْنَانِ عَلَى وِفَاقٍ وَبَدَآ فِي اللَّعِبِ مَعًا وَلَكِنْ بِبَعْضِ التَّوَتُّرِ

وَالإِحْرَاجِ. وَبَعْدَ مُرُورِ بَعْضِ الْوَقْتِ، بَدَأَ الذِّئْبُ فِي الرَّكْضِ بِسُرْعَةٍ خَفِيفَةٍ، وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتْبَعَهُ باك، وَرَكَضَا مَعًا عَبْرَ اللَّيْلِ نَحْوَ الْجِبَالِ.

ظَلُّوا يَرْكُضُونَ لِأَيَّامٍ، غَمَرَتْ فِيهَا السَّعَادَةُ باك الَّذِي شَعَرَ أَنَّهُ يُلَبِّي ذَلِكَ النِّدَاءَ أَخِيرًا وَهُوَ يَرْكُضُ بِجَانِبِ صَدِيقِهِ الَّذِي كَانَ بِمَثَابَةِ أَخٍ بِالنِّسْبَةِ لَهُ. تَوَقَّفَا بِجَانِبِ جَدْوَلِ مِيَاهٍ لِيَشْرَبَا، ثُمَّ تَذَكَّرَ باك جون ثورنتون فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ. بَدَأَ الذِّئْبُ فِي التَّحَرُّكِ ثُمَّ عَادَ إِلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى وَهُوَ يَتَشَمَّمُ أَنْفَهُ مُحَاوِلًا تَحْفِيزَهُ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ. وَلَكِنَّ باك اسْتَدَارَ وَبَدَأَ فِي الْعَوْدَةِ بِبُطْءٍ، وَلِمُدَّةِ سَاعَةٍ رَكَضَ الذِّئْبُ بِجَانِبِهِ وَهُوَ يَنْتَحِبُ بِرِفْقٍ، ثُمَّ جَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ وَرَفَعَ أَنْفَهُ تِجَاهَ السَّمَاءِ وَأَطْلَقَ عُوَاءً حَزِينًا، وَبَيْنَمَا اسْتَمَرَّ باك فِي التَّقَدُّمِ، سَمِعَ الْعُوَاءَ يَخْبُو حَتَّى اخْتَفَى مَعَ بُعْدِ الْمَسَافَةِ.

كَانَ جون ثورنتون يَتَنَاوَلُ الْعَشَاءَ عِنْدَمَا رَكَضَ باك إِلَى الْمُخَيَّمِ وَقَفَزَ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَلْعَقُ وَجْهَهُ وَيَعَضُّ يَدَهُ بِحُبٍّ، بَيْنَمَا يَهُزُّهُ جون ثورنتون لِلْأَمَامِ وَالْخَلْفِ وَهُوَ يَنْعَتُهُ بِأَلْقَابٍ سَيِّئَةٍ.

لِمُدَّةِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتَيْهِمَا لَمْ يَتْرُكْ باك الْمُخَيَّمَ وَلَمْ يَتْرُكْ جون ثورنتون يَغِيبُ عَنْ نَاظِرَيْهِ، فَقَدْ كَانَ يَتْبَعُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ. كَانَ يُرَاقِبُهُ وَهُوَ يَأْكُلُ وَيَتْبَعُهُ حَتَّى يَنَامَ كُلَّ يَوْمٍ، وَيَنْتَظِرُهُ حِينَ يَسْتَيْقِظُ فِي الصَّبَاحِ، وَلَكِنْ بَعْدَ يَوْمَيْنِ بَدَأَ باك يَشْعُرُ بِالنِّدَاءِ الْعَجِيبِ مِنَ الْغَابَةِ أَقْوَى مِنْ ذِي قَبْلُ، وَعَادَ إِلَيْهِ قَلَقُهُ وَلَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ التَّوَقُّفِ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي الذِّئْبِ وَفِي رِحْلَتِهِمَا مَعًا عَبْرَ الْغَابَةِ، فَعَادَ يَتَجَوَّلُ فِي الْغَابَةِ وَلَكِنَّ الذِّئْبَ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ.

بَدَأَ يَخْرُجُ لَيْلًا وَيَبْقَى بَعِيدًا عَنِ الْمُخَيَّمِ لِأَيَّامٍ فِي الْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ. وَفِي إِحْدَى الْمَرَّاتِ، عَبَرَ الْجَبَلَ وَتَجَوَّلَ لِمُدَّةِ أُسْبُوعٍ بَحْثًا عَنِ الذِّئْبِ، وَكَانَ يَصْطَادُ وَيَأْكُلُ أَثْنَاءَ سَفَرِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْعُرُ بِالتَّعَبِ قَطُّ، فَقَدِ اصْطَادَ أَسْمَاكَ السَّلْمُونِ مِنْ جَدْوَلٍ صَغِيرٍ، وَفَازَ بِقِتَالٍ ضِدَّ دُبٍّ أَسْوَدَ ضَخْمٍ؛ كَانَتْ مَعْرَكَةً شَرِسَةً وَقَدْ شَعَرَ باك وَكَأَنَّهُ مُقَاتِلٌ مُجَدَّدًا، وَبَعْدَ يَوْمَيْنِ طَارَدَ حَيَوَانَاتِ الولفرين وَأَمْسَكَ اثْنَيْنِ مِنْهَا.

كَانَ يَشْعُرُ وَكَأَنَّهُ أَفْضَلُ صَيَّادٍ فِي الْعَالَمِ، وَأَقْوَى حَيَوَانٍ. كَانَ فَخُورًا بِنَفْسِهِ وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي مِشْيَتِهِ. وَفِيمَا عَدَا اللَّوْنِ الْبُنِّيِّ عَلَى أَنْفِهِ وَفَوْقَ عَيْنَيْهِ وَالشَّعْرِ الْأَبْيَضِ عَلَى صَدْرِهِ، بَدَا وَكَأَنَّهُ ذِئْبٌ ضَخْمٌ، أَضْخَمُ مِنْ أَضْخَمِ ذِئْبٍ فِي الْعَالَمِ. كَانَ وَالِدُ باك مِنْ فَصِيلَةِ

سان برنارد، لِذَا وَرِثَ باك حَجْمَهُ وَوَزْنَهُ مِنْهُ، بَيْنَمَا وَرِثَ مِنْ أُمِّهِ — وَالَّتِي كَانَتْ مِنْ فَصِيلَةِ الراعي — هَيْئَتَهَا. كَانَ أَنْفُهُ طَوِيلًا كَالذِّئَابِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْبَرَ مِنْ أَنْفِ أَيِّ ذِئْبٍ، وَكَانَتْ رَأْسُهُ تُشْبِهُ رَأْسَ الذِّئْبِ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ أَكْبَرَ بِثَلَاثَةِ أَضْعَافٍ.

كَانَ مَاكِرًا كَالذِّئْبِ، وَذَكِيًّا كَكِلَابِ فَصِيلَتَيْ سان برنارد والراعي. هَذَا — بِالْإِضَافَةِ إِلَى الْخِبْرَةِ الّتِي اكْتَسَبَهَا فِي الشَّمَالِ — جَعَلَهُ فِي قُوَّةِ أَيِّ حَيَوَانٍ مَوْجُودٍ فِي الْبَرِّيَّةِ، فَكَانَ يُمْكِنُهُ الاسْتِجَابَةُ لِلْأَصْوَاتِ وَالْحَرَكَاتِ بِسُرْعَةِ الْبَرْقِ، وَيُمْكِنُهُ الْوَثْبُ بِضِعْفِ سُرْعَةِ كِلَابِ الهاسكي. وَكَانَ يُمْكِنُهُ رُؤْيَةُ التَّحَرُّكَاتِ وَسَمَاعُ الْأَصْوَاتِ وَالاسْتِجَابَةُ فِي وَقْتٍ أَقَلَّ مِنَ الْوَقْتِ الَّذِي يَحْتَاجُهُ أَيُّ كَلْبٍ لِرُؤْيَةِ أَوْ سَمَاعِ أَيِّ شَيْءٍ. كَانَتْ عَضَلَاتُهُ قَوِيَّةً وَتَتَحَرَّكُ وَتَنْبِضُ كَالْفُولَاذِ.

«لَمْ يُخْلَقْ كَلْبٌ مِثْلُهُ مِنْ قَبْلُ.» هَكَذَا وَصَفَهُ جون ثورنتون فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ بَيْنَمَا كَانَ يُرَاقِبُهُ هُوَ وَشُرَكَاؤُهُ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْمُخَيَّمِ.

وَقَالَ بيت: «لَقَدْ تَحَطَّمَ الْقَالَبُ الَّذِي صِيغَ عَلَيْهِ بَعْدَ صُنْعِهِ.»

أَضَافَ هانز: «بِحَقِّ السَّمَاءِ! أَنَا أَيْضًا أَرَى ذَلِكَ.»

لَقَدْ رَاقَبُوهُ وَهُوَ يَخْرُجُ مِنَ الْمُخَيَّمِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا مَا تَغَيَّرَ بِهِ بِمُجَرَّدِ أَنِ اخْتَفَى فِي أَحْضَانِ الْغَابَةِ. فَقَدْ تَوَقَّفَ عَنِ السَّيْرِ وَأَصْبَحَ جُزْءًا مِنَ الْبَرِّيَّةِ وَهُوَ يَزْحَفُ بِهُدُوءٍ، كَانَ يَعْلَمُ كَيْفَ يَخْتَبِئُ وَيَزْحَفُ عَلَى بَطْنِهِ كَالثُّعْبَانِ، وَيَثِبُ وَيُهَاجِمُ أَيْضًا كَالثُّعْبَانِ. كَانَ يُمْكِنُهُ الْإِمسَاكُ بِالطُّيُورِ فِي أَعْشَاشِهَا، وَالْأَرَانِبِ أَثْنَاءَ نَوْمِهَا، أَوِ السَّنَاجِبِ فِي الْهَوَاءِ أَثْنَاءَ قَفْزِهَا. وَالْأَسْمَاكُ لَمْ تَكُنْ سَرِيعَةً بِمَا يَكْفِي لِتَهْرُبَ مِنْ مَخَالِبِهِ. وَفِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، كَانَ يَسْتَمْتِعُ بِالزَّحْفِ خِلْسَةً وَرَاءَ السَّنَاجِبِ، وَبِمُجَرَّدِ أَنْ يُوشِكَ عَلَى الْإِمْسَاكِ بِهَا كَانَ يَتْرُكُهَا وَيُرَاقِبُهَا وَهِيَ تَهْرُبُ فِي خَوْفٍ مُتَسَلِّقَةً الْأَشْجَارَ.

وَمَعَ قُدُومِ فَصْلِ الْخَرِيفِ، بَدَأَ ظُهُورُ أَيَائِلِ الْمُوظِ وَهِيَ تَسِيرُ بِرَوِيَّةٍ فِي الْوَادِي. كَانَ باك قَدِ اصْطَادَ بِالْفِعْلِ أَيْلًا صَغِيرًا، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ أَيْلًا أَكْبَرَ وَأَكْثَرَ صُعُوبَةً فِي الْإِمْسَاكِ بِهِ، وَقَدْ وَجَدَ ضَالَّتَهُ فِي أَحَدِ الْأَيَّامِ بِجَانِبِ الْجَدْوَلِ الصَّغِيرِ. كَانَ هُنَاكَ عِشْرُونَ مِنْ أَيَائِلِ الْمُوظِ يَسِيرُونَ هُنَاكَ، وَكَانَ قَائِدُهُمْ ذَكَرَ مُوظٍ ضَخْمًا سَيِّئَ الْمِزَاجِ، وَكَانَ طُولُهُ يَبْلُغُ

سِتَّةَ أَقْدَامٍ، وَكَانَتْ قُرُونُهُ طُولُهَا سَبْعَةُ أَقْدَامٍ، وَعِنْدَمَا رَأَى باك انْبَعَثَ الشَّرَرُ مِنْ عَيْنَيْهِ الصَّغِيرَتَيْنِ، وَزَأَرَ فِي غَضَبٍ.

طَارَدَ باك أَيَائِلَ الْمُوظِ لِأَيَّامٍ، وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ، بَدَأَ يَشْعُرُ بِتَغَيُّرٍ يَحْدُثُ فِي الْأَرْضِ، كَانَتْ أَشْكَالٌ أُخْرَى مِنَ الْحَيَاةِ تَبْدَأُ فِي الْخُرُوجِ، وَقَدِ اسْتَشْعَرَ ذَلِكَ فِي الْهَوَاءِ. فَلَمْ يَكُنْ يَسْمَعُ أَوْ يَرَى شَيْئًا مُمَيَّزًا، وَلَكِنَّهُ أَدْرَكَ أَنْ وَجْهَ الْأَرْضِ قَدْ تَغَيَّرَ بِصُورَةٍ مَا، وَأَنَّ كَائِنَاتٍ غَرِيبَةً تَتَجَوَّلُ هُنَاكَ. فَقَرَّرَ التَّخَلِّيَ عَنْ صَيْدِ الْمُوظِ وَتَحَرِّيَ الْأَمْرِ. بَدَأَ يَقْطَعُ طَرِيقَ الْعَوْدَةِ إِلَى الْمُخَيَّمِ وَإِلَى جون ثورنتون، فَانْطَلَقَ يَعْدُو وَيَعْدُو لِسَاعَاتٍ، وَلَمْ يَفْقِدْ طَرِيقَهُ أَبَدًا وَهُوَ يَتَّجِهُ إِلَى الكُوخِ مُبَاشَرَةً.

وَبَيْنَمَا كَانَ باك يَرْكُضُ، بَدَأَ يُدْرِكُ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا جَدِيدًا، هُنَاكَ شَيْءٌ حَيٌّ مُخْتَلِفٌ عَمَّا كَانَ مَوْجُودًا فِي فَصْلِ الصَّيْفِ. إِنَّهُ شَيْءٌ تَحَدَّثَتْ عَنْهُ الطُّيُورُ، وَتَكَلَّمَتْ عَنْهُ السَّنَاجِبُ، وَكَانَ يَشَمُّهُ فِي الرِّيَاحِ. وَقَدْ تَوَقَّفَ عِدَّةَ مَرَّاتٍ لِتَشَمُّمِ الْهَوَاءِ فِي الصَّبَاحِ وَكَأَنَّهُ يَقْرَأُ رِسَالَةً، وَقَدْ جَعَلَهُ ذَلِكَ يَرْكُضُ أَسْرَعَ، كَانَ يَشْعُرُ أَنَّ شَيْئًا سَيِّئًا سَيَحْدُثُ، أَوْ حَدَثَ بِالْفِعْلِ، وَعِنْدَمَا بَدَأَ فِي النُّزُولِ لِأَسْفَلِ الْوَادِي فِي اتِّجَاهِ الْمُخَيَّمِ بَدَأَ يَتَحَرَّكُ بِحَذَرٍ.

عَلَى بُعْدِ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ، وَجَدَ باك آثَارًا جَدِيدَةً جَعَلَتْ شَعْرَ جَسَدِهِ يَنْتَصِبُ؛ إِذْ كَانَ الْأَثَرُ يَقُودُ مُبَاشَرَةً إِلَى مُخَيَّمِ جون ثورنتون. تَقَدَّمَ باك بِسُرْعَةٍ وَرَشَاقَةٍ وَصَمْتٍ، وَكَانَتْ كُلُّ ذَرَّةٍ فِي جَسَدِهِ مُتَحَفِّزَةً لِمَا شَعَرَ بِهِ. كَانَتْ كُلُّ الْحَيَوَانَاتِ فِي الْغَابَةِ مُخْتَبِئَةً فِي صَمْتٍ.

اتَّبَعَ رَائِحَةً جَدِيدَةً فِي شُجَيْرَةٍ، وَسَمِعَ مِنْ جِهَةِ الْمُخَيَّمِ أَصْوَاتًا عَدِيدَةً تَرْتَفِعُ وَتَنْخَفِضُ فِي غِنَاءٍ، اقْتَرَبَ باك بِبُطْءٍ وَنَظَرَ نَحْوَ مَكَانِ الكُوخِ وَرَأَى شَيْئًا جَعَلَ كُلَّ شَعْرَةٍ فِي جَسَدِهِ تَنْتَفِضُ.

كَانَتْ قَبِيلَةٌ مِنَ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ مَعْرُوفَةٌ بِاسْمِ «الييهاتس» يَرْقُصُونَ حَوْلَ الكُوخِ الْمُحْتَرِقِ. لَقَدْ أَقَامَ ثورنتون وَشُرَكَاؤُهُ الْمُخَيَّمَ فِي أَرْضِ السُّكَّانِ الْأَصْلِيِّينَ دُونَ أَنْ يُدْرِكُوا أَنَّ ذَلِكَ سَيَجْعَلُهُمْ دُخَلَاءَ. لِذَا، هَاجَمَهُمُ «الييهاتس» وَفَازُوا بِالْمَعْرَكَةِ بِسُهُولَةٍ، وَقَدْ كَانُوا يَحْتَفِلُونَ بِنَصْرِهِمْ عِنْدَمَا سَمِعُوا زَئِيرًا وَرَأَوْا حَيَوَانًا يَنْقَضُّ عَلَيْهِمُ انْقِضَاضَةً لَمْ يَرَوْا مَثِيلَهَا مِنْ قَبْلُ؛ إِنَّهُ باك الَّذِي انْقَضَّ عَلَيْهِمْ كَالْإِعْصَارِ، وَطَارَدَهُمْ بِقُوَّةٍ حَتَّى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَحِيلِ التَّغَلُّبُ عَلَيْهِ. فَقَدْ كَانَ يَتَحَرَّكُ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ، وَكَانَ ثَائِرًا مِنَ الْغَضَبِ، فَزِعَ

أَفْرَادُ «الييهاتس» وَرَكَضُوا نَحْوَ الْغَابَةِ وَهُمْ يُلَقِّبُونَ باك بِاسْمِ «الرُّوحِ الشِّرِّيرَةِ». وَكَانَ باك يَبْدُو شِرِّيرًا حَقًّا وَهُوَ يُطَارِدُهُمْ. وَبَعْدَ مُرُورِ بَعْضِ الْوَقْتِ، عَادَ باك إِلَى الْمُخَيَّمِ الَّذِي كَانَ قَدْ دُمِّرَ تَمَامًا، كَانَ الرِّجَالُ وَالْكِلَابُ قَدْ رَحَلُوا، وَكَانَ بِإِمْكَانِ باك شَمُّ الْمَوْقِعِ الَّذِي قَاتَلَ فِيهِ ثورنتون وَخَسِرَ.

طَافَ باك حَوْلَ الْمُخَيَّمِ طَوَالَ الْيَوْمِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ مَاذَا يَفْعَلُ، كَانَ يَعْلَمُ فَقَطْ أَنَّ جون ثورنتون قَدْ رَحَلَ تَارِكًا بِدَاخِلِهِ خَوَاءً مِثْلَ الْجُوعِ أَخَذَ يُؤْلِمُهُ وَيُؤْلِمُهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الطَّعَامَ لَنْ يَمْلَأَ هَذَا الْخَوَاءَ.

فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، كَانَ يَشْعُر بِالْفَخْرِ لِأَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ طَرْدِ الرِّجَالِ الَّذِينَ اقْتَحَمُوا الْمُخَيَّمَ؛ لَقَدْ طَارَدَ الرِّجَالَ، وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَّ الْأَمْرَ أَسْهَلُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الْأُخْرَى الَّتِي طَارَدَهَا، فَالْبَشَرُ لَا يُمَثِّلُونَ خَطَرًا إِلَّا عِنْدَمَا يَحْمِلُونَ الْأَسْلِحَةَ فَقَطْ. وَمِنَ الْآنَ فَصَاعِدًا، لَنْ يَشْعُرَ بِالْخَوْفِ مِنَ الْبَشَرِ أَبَدًا إِلَّا إِذَا كَانُوا يَحْمِلُونَ الْحِبَالَ أَوِ السِّهَامَ أَوِ الْمُسَدَّسَاتِ.

وَفِي اللَّيْلِ، سَطَعَ الْقَمَرُ بَدْرًا فَوْقَ الْأَشْجَارِ، وَبَيْنَمَا كَانَ باك يَسْتَلْقِي حَزِينًا بِجَانِبِ الْمِيَاهِ، شَعَرَ بِشَيْءٍ آخَرَ يَتَحَرَّكُ فِي الْغَابَةِ. هَبَّ باك وَاقِفًا عَلَى قَدَمَيْهِ يُنْصِتُ السَّمْعَ وَيَشَمُّ الْهَوَاءَ. وَمِنْ بَعِيدٍ سَمِعَ صَوْتَ عُوَاءٍ خَافِتٍ وَتَبِعَهُ الْمَزِيدُ مِنْ أَصْوَاتِ الْعُوَاءِ، ثُمَّ غَدَا الصَّوْتُ أَقْرَبَ وَأَعْلَى. كَانَ ذَلِكَ نِدَاءً آخَرَ، وَهَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَ باك مُسْتَعِدًّا لِتَلْبِيَتِهِ؛ فَقَدْ رَحَلَ جون ثورنتون، وَلَمْ يَعُدْ هُنَاكَ مَا يَرْبِطُ باك بِعَالَمِ الْبَشَرِ.

دَخَلَ قَطِيعٌ مِنَ الذِّئَابِ إِلَى الْمِنْطَقَةِ، وَوَقَفَ باك فِي مُنْتَصَفِ الْمَكَانِ يَنْتَظِرُهُمْ. وَقَدِ اعْتَرَتِ الْقَطِيعَ الدَّهْشَةُ، فَقَدْ كَانَ باك ضَخْمًا جِدًّا، حَتَّى إِنَّهُمْ وَقَفُوا لِلَحْظَةٍ وَأَخَذُوا يُحَدِّقُونَ فِيهِ. ثُمَّ انْقَضَّ الْأَشْجَعُ بَيْنَهُمْ عَلَى باك، وَبِسُرْعَةِ الْبَرْقِ قَاتَلَ باك، ثُمَّ حَاوَلَ الْمَزِيدُ مِنْهُمْ مُهَاجَمَتَهُ وَلَكِنَّهُ قَاتَلَهُمْ جَمِيعًا.

لَقَدْ قَاتَلَ بِبَرَاعَةٍ، حَتَّى إِنَّ الذِّئَابَ تَرَاجَعَتْ بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ، لَقَدْ كَانُوا مُتْعَبِينَ وَمُصَابِينَ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ يَسْتَلْقِي وَالْبَعْضُ الْآخَرُ وَقَفَ يُشَاهِدُ باك وَآخَرُونَ يَشْرَبُونَ مِنَ الْمِيَاهِ. ثُمَّ تَقَدَّمَ أَحَدُ الذِّئَابِ — طَوِيلٌ وَمَمْشُوقُ الْقَوَامِ وَرَمَادِيُّ اللَّوْنِ — تِجَاهَ باك بِحَذَرٍ وَبِطَرِيقَةٍ وَدُودَةٍ وَتَعَرَّفَ باك عَلَيْهِ؛ فَقَدْ كَانَ هُوَ الذِّئْبُ الَّذِي قَابَلَهُ مِنْ قَبْلُ. كَانَ الذِّئْبُ يَعْوِي بِرِفْقٍ، فَأَجَابَهُ باك بِعُوَاءٍ مُمَاثِلٍ، ثُمَّ تَلَامَسَ أَنْفَاهُمَا فِي رِفْقٍ، ثُمَّ تَقَدَّمَ ذِئْبٌ عَجُوزٌ — نَحِيفُ الْبِنْيَةِ وَلَدَيْهِ نُدُوبٌ مِنَ الْمَعَارِكِ — وَتَشَمَّمَ باك أَنْفَهُ أَيْضًا، ثُمَّ جَلَسَ

الذِّئْبُ الْكَبِيرُ وَوَجَّهُ أَنْفَهُ نَحْوَ الْقَمَرِ وَأَطْلَقَ عُوَاءً طَوِيلًا، فَتَبِعَهُ الْآخَرُونَ وَأَطْلَقُوا عُوَاءً مُمَاثِلًا. وَالْآنَ جَاءَ النِّدَاءُ لِباك أَيْضًا، فَجَلَسَ وَعَوَى مَعَهُمْ. بَعْدَ ذَلِكَ، تَجَمَّعَ الْقَطِيعُ حَوْلَ باك وَأَخَذُوا يَتَشَمَّمُونَهُ بِطَرِيقَةٍ وَدُودَةٍ وَشِبْهِ هَمَجِيَّةٍ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ. حَمَلَ قَادَةُ الذِّئَابِ الصِّغَارَ وَرَكَضُوا نَحْوَ الْغَابَةِ، وَتَبِعَهُمُ الْبَقِيَّةُ وَهُمْ يَعْوُونَ مَعًا، وَرَكَضَ باك مَعَهُمْ بِجَانِبِ صَدِيقِهِ الْبَرِّيِّ وَهُوَ يَعْوِي هُوَ الْآخَرُ.

وَهُنَا تَنْتَهِي قِصَّةُ باك، بَعْدَ أَنِ اخْتَفَى مِنْ دَاخِلِهِ — قَبْلَ وَقْتٍ طَوِيلٍ — ذَلِكَ الْكَلْبُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّابِقِ يَسْتَمْتِعُ بِشَيْءٍ أَكْثَرَ مِنَ الِاسْتِلْقَاءِ فِي الشَّمْسِ فِي مَنْزِلِ الْقَاضِي ميلر الْكَبِيرِ فِي وَادِي سانت كلارا الْخَصْبِ.

وَلَكِنْ فِي السَّنَوَاتِ التَّالِيَةِ، لَاحَظَ «الييهاتس» تَغَيُّرًا فِي الذِّئَابِ، فَأَصْبَحَ لَدَى الْبَعْضِ مِنْهَا الْآنَ لَطْخًا مِنَ اللَّوْنِ الْبُنِّيِّ عَلَى رُءُوسِهَا وَأُنُوفِهَا، أَوْ رُقَعًا بَيْضَاءَ عَلَى صُدُورِهَا. كَمَا رَوَى «الييهاتس» قِصَصًا أَيْضًا عَنِ الْكَلبِ الشَّبَحِ الَّذِي يَقُودُ الْقَطِيعَ، وَكَانُوا يَخَافُونَ مِنْ ذَلِكَ الْكَلْبِ الشَّبَحِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أَذْكَى مِنْ أَيِّ حَيَوَانٍ أَوْ إِنْسَانٍ، وَكَانَ بِإِمْكَانِهِ السَّرِقَةُ مِنْ مُخَيَّمَاتِهِمْ وَمِنْ مَصَائِدِهِمْ وَالْهُرُوبُ مِنْ أَفْضَلِ صَيَّادِيهِمْ.

وَكُلَّ خَرِيفٍ، بَيْنَمَا يَتَنَقَّلُ «الييهاتس» عَبْرَ مِنْطَقَتِهِمْ، كَانَ هُنَاكَ وَادِي لَا يَدْخُلُونَهُ أَبَدًا. وَكَانُوا يَرْوُونَ قِصَصًا حَزِينَةً عَنِ الرُّوحِ الشِّرِّيرَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي أَحَدِ الْأَعْوَامِ وَقَرَّرَتِ الْعَيْشَ فِي هَذَا الْوَادِي.

وَفِي فُصُولِ الصَّيْفِ، كَانَ هُنَاكَ حَيَوَانٌ وَاحِدٌ يَخْرُجُ مِنْ ذَلِكَ الْوَادِي؛ إِنَّهُ ذِئْبٌ عَظِيمٌ، أَضْخَمُ مِنْ أَيِّ ذِئْبٍ آخَرَ. كَانَ يَعْبُرُ الْغَابَةَ وَيَهْبِطُ إِلَى أَرْضٍ مَفْتُوحَةٍ بَيْنَ الْأَشْجَارِ، وَهُنَاكَ يُوجَدُ غُبَارٌ أَصْفَرُ وَأَحْجَارٌ صَفْرَاءُ مُلْقَاةٌ عَلَى الْأَرْضِ حَوْلَ أَكْيَاسٍ قَدِيمَةٍ مُمَزَّقَةٍ تَنْمُو حَوْلَهَا الْأَعْشَابُ الطَّوِيلَةُ وَتُغَطِّيهَا. وَهُنَاكَ يَقْضِي الذِّئْبُ الْعَظِيمُ بَعْضَ الْوَقْتِ فِي تَفْكِيرٍ وَرِثَاءٍ ثُمَّ يُطْلِقُ عُوَاءً طَوِيلًا وَحَزِينًا، ثُمَّ يَرْحَلُ.

وَلَكِنَّهُ لَيْسَ وَحِيدًا دَائِمًا؛ فَعِنْدَمَا تَأْتِي لَيَالِي الشِّتَاءِ الْبَارِدَةُ الطَّوِيلَةُ وَتَتْبَعُ الذِّئَابُ فَرَائِسَهَا إِلَى الْأَوْدِيَةِ، يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ وَهُوَ يَرْكُضُ مُتَصَدِّرًا الْقَطِيعَ تَحْتَ ضَوْءِ الْقَمَرِ، وَيَقْفِزُ أَعْلَى مِنَ الذِّئَابِ الْأُخْرَى، وَيَنْطَلِقُ الْعُوَاءُ مِنْ حَلْقِهِ وَهُوَ يُغَنِّي أُنْشُودَةَ الْقَطِيعِ.


هنداوي